

# قرض كاهن ووجانبه بركة

A Priest's Blessed Loan  
Haseeb Shehadeh  
The University of Helsinki

في ما يلي ترجمة عربية للقصة التي حكاها الكاهن الأكبر عبد المعين (العزار) صدقة إسحق عمران، أبو وضاح (١٩٢٧-٢٠١٠)، كاهن أكبر رقم ١٣٥ ابتداء من ٩ نيسان ٢٠٠٤ وحتى مماته؛ عنه أنظر:

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=206356>

بالعربية على مسامع بنيامين راضي صدقة (١٩٤٤- )، الذي بدوره نقلها إلى العبرية، ونشرها في الدورية السامرية أ. ب. أخبار السامرة، عدد ١٢١١-١٢١٢، ١ نيسان ٢٠١٦، ص. ٢٨-٣٠. هذه الدورية التي تصدر مرتين شهرياً في مدينة حولون جنوبي تل أبيب، فريدة من نوعها؛ إنها تستعمل أربع لغات بأربعة خطوط أو أربع أبجديات: العبرية أو الآرامية السامرية بالخط العبري القديم، المعروف اليوم بالحروف السامرية؛ العبرية الحديثة بالخط المربع/الأشوري، أي الخط العبري الحالي؛ العربية بالرسم العربي؛ الإنجليزية (أحياناً لغات أخرى مثل الفرنسية والألمانية والإسبانية) بالخط اللاتيني.

بدأت هذه الدورية السامرية في الصدور منذ أواخر العام ١٩٦٩، وما زالت تصدر بانتظام، توزع مجاناً على كل بيت سامري في نابلس وحولون، قرابة الثمانمائة سامري، وهناك مشتركون فيها من الباحثين والمهتمين في الدراسات السامرية، في شتى أرجاء العالم. هذه الدورية ما زالت حية ترزق، لا بل وتتطور بفضل إخلاص ومثابرة الشقيقين بنيامين (الأمين) وبيفت (حسني، ١٩٤٦- )، نجلي المرحوم راضي (رتسون) صدقة (٢٢ شباط ١٩٢٢-٢٠ كانون الثاني ١٩٩٠). تدور هذه القصة حول جد جد الراوي، الكاهن الأكبر سلامة بن غزال (طابيا) بن إسحق ١٧٨٤-١٨٥٥ الذي تيمم من أبيه وهو طفل، وأصبح كاهناً أكبر وهو ابن ١٥ ربيعاً.

”واجب إعطاء العُشر مرتين سنوياً عند قدوم الإسرائيليين لمشاهدة وجه الله، في خلال الأيام الواقعة ما بين اليوم الأول واليوم الأخير من عيدي الفصح والعُرش، هو فريضة مقدّسة يتحتّم على بني إسرائيل القيام بها بتقوى. الكلّ يعلم أنّ العُشر رمزي، إذ منذ قرون لا يملك السامريون أراضي زراعية، وعليه فليس في مقدورهم جلب باكورة ثمار الأرض إلى الكاهن الأكبر. إلا أننا بنو إسرائيل السامريون، نواصل في الواقع أداء فريضة العُشر لكهنتنا، رمزاً لتقوية أواصر الصلة بين كلا التيارين المكوّنين لشعبنا، كاهن ويسرائيل. وحول تقديم العُشر أيضاً، انبثق ما يشبه الفولكلور الداخلي، وهناك من يبرّره بدعابة نموذجية، بأن العطاء للكاهن من يسرائيل وليس بالعكس، من يسرائيل لكاهن، مصدرها بكثرة ورود الصيغة ”وأخذ الكاهن ملاء قبضته“ [أنظر سفر اللاويين ٢: ٢، ٥: ١٢] إزاء ”وأعطى الكاهن بإصبعه“ [هكذا في الأصل ولا وجود لمثل هذه العبارة في التوراة، هناك مثلاً ”وأخذ الكاهن من دم الخطيئة بإصبعه إلخ“، أنظر سفر اللاويين ٤: ٢٥، ٣٠، ٣٤؛ ٨: ١٥؛ ١٤: ١٦، ٢٧؛ ١٦: ١٤، ١٤؛ ١٩: ١٩].

للموازنة بين القول المثير للابتسام والواقع، أقص عليكم قصة تدور حول كاهن أعطى من ماله قرضاً لإسرائيلي، تمخّض عن بركة عظيمة. هذا ليريكم ويعلمكم، أنّ بركة كبيرة، ترافق هدية الكاهن. عندما يرفع يده نحو الشعب ويباركه، وهو في قمة فاقتة، لا يبخل بنقوده المعدنية على أخيه المسكين، كما جاء في التوراة ”...فتحا فتحت يدك لأخيك ولضعيفك ولمسكينك في أرضك“ [سفر التثنية ١٥: ١١؛ أنظر: الترجمة العربية لتوراة السامريين، حقّقها وقدم لها حسيب شحادة، المجلد الثاني: سفر اللاويين، سفر العدد وسفر تثنية الاشتراع. القدس: الاكاديمية الوطنية الإسرائيلية للعلوم والآداب، ٢٠٠٢، ص. ٤٩٩؛ المجلد الأوّل: سفر التكوين وسفر الخروج، ١٩٨٩].

تتحدث القصة عن جدّ جدّي، الكاهن الأكبر سلامة بن غزال (طابيا)، الذي لكثرة ذنوبنا، بقي الوحيد في أسرة الكهنة الكبار، يتيما ابن أربعة أعوام، رعاه وربّاه شيوخ الطائفة، وأصبح كاهناً أكبر ببلوغه خمسة عشر ربيعاً فقط. تزوّج فيما بعد من المرأة الجميلة زهر بنت أبي المرجان الدنفي (زهر بنت أب سكوه) وأنجب منها ذكوراً وإناثاً وحتى اليوم، نحن الكهنة من ذريّته، وصرنا أكبر ثاني عائلة/حمولة في الطائفة بعد الدنفيه/آل الدنفي.

وضّع أبناء طائفته الاقتصادي في تلك الأيام كان سيئاً جداً، نتيجة أهوال الحكم التركي وضغط المحيط الذي عاشوا فيه. كل من كان يحصل على كسرة خبز لأهل بيته شعر كأنه ملك، لا عمل، وبالطبع لا رزق. في مثل هذا الوضع، استغلّ السامريون كل ما لديهم من موهبة للحصول على الطعام، بكل وسيلة لا تتعارض مع فرائض الله. الإيمان القوي في القلوب، هو الذي أبقاهم وشجّعهم على التكاثر والصبر. الإيمان بقدم أيام خير على الطائفة الصغيرة، رغم أنّها ”أقل من كل الشعوب/الأمم/الأقوام“ (سفر تثنية الاشتراع ٧:٧) فإنّه سيتحقّق ما ورد عنهم في التوراة ”ان يسيرا/يسرا/قليل ما كان لك معي/بين يدي/قبلي واتسع كثرة/للكثرة/في الكثرة/كثرة“ (سفر التكوين ٣٠: ٣٠) [أنظر حسيب شحادة المذكور أعلاه، ج. ٢، ص. ٤٥٢-٤٥٣؛ ج. ١، ص. ١٤٠-١٤١]، إذ أنّنا جميعاً نعتبر بمثابة خراف يعقوب.

اعتاد السامريون منذ القدم، تقديم العون في كلّ مناسبة، لكل شخص محتاج منهم. مع الحرص على أنّ تقديم المال لن يُخلجه. بعبارة أخرى، ألا يُشعروهم بأنّ للجميع معرفة بفاقته. هكذا نستغلّ اليوم، إعطاء الأعشار للكهنة، وتقديم مصروف عيد ”صموت هيسح“ لأولادنا ولأولاد أقاربنا [عيد ذكرى لقاء الشقيقتين موسي وأهرون في طريقهما للقاء فرعون مصر، لإخراج بني إسرائيل من هناك، موعده خمسون يوماً قبل رأس الشهر الأول، نيسان؛ وهنالك صموت العرش الذي يحلّ بعد ذلك بنصف سنة، وفي هذين العيدين، تقدّم الصينيات المملوءة بالحلويات والكعك بأنواعها المختلفة كالكنافة النابلسية الشهيرة]. بهذا النحو، أنقذ أولئك الذين كان في جعبتهم قرش، سبوتاً وأعياداً خاصة في السنة، لكي يساعدوا الفقراء والمظلومين، ولأولئك الذين لم يوفّقوا في تجارتهم، وافترقوا بسبب انهيار اقتصادي غير متوقّع.

أحد أولئك المُعوزين في ذلك الوقت، كان إسحق ابن أبي حنونة الدنفي، أحد أصدقاء الكاهن الأكبر سلامة المقرّبين، الذي بالكاد حصل على كسرة الخبز والماء [في الأصل عبارة مأخوذة من أسفار العهد القديم مثل سفر إشعياء ٣٠: ٢٠، ”فيعطيك خبزاً في الضيق وماءً في الشدّة“؛ وأنظر سفر الملوك الأوّل ٢٢: ٢٧، أخبار الأيام الثاني ١٨: ٢٦. لا أدري فيما إذا كان الكاهن الأكبر عبد المعين، قد استخدم هذه العبارة التي لا ذكر لها في توراته، أم شيئاً آخر بالعربية، ونقله هكذا بنيامين صدقة. على كلّ حال، من المعروف أن السامريين كانوا على علم بأسفار الأنبياء والكتابات منذ القدم لغرض النقاش والمحاكة مع اليهود الرّبانيين]. الجدير بالذكر، أنّه عند تحسّن حالته المادية، كان يتبرّع بسخاء لشراء ’أغراض‘ دينية لكنيس نابلس. جدّ جدّي، الكاهن الأكبر سلامة، رأى حياة إسحق الصعبة، فهبّ لمساعدته بأحسن وجه، قدر طاقته المحدودة. ذات يوم، بعد عيد من الأعياد، أتى الكاهن الأكبر سلامة إلى مسكن إسحق الدنفي، ووجده يصلّي صلاة المساء، يسجد سجدة لربّ إسرائيل، على سجادة صلاة صغيرة. انتظر الكاهن الأكبر سلامة، إلى أن انتهى إسحق من صلاته، تقدّم نحوه، انحنى ودسّ مبلغاً من النقود كان بيده، تحت السجادة. قال الكاهن الأكبر لإسحق ”خذ هديّتي من يدي، واعتبرها قرصاً مع حق الرجوع على الضامن إذا عجز المقرض عن تسديده“. وضعتُ النقود تحت السجادة، وكلّما احتجت لدفع ما، دسّ يدك تحت سجادة صلاتك، وخذ ما ترغب فيه، إلى أن تنفد النقود. لكنّي عليّ أن أحذرك، بالألّا يغريك رفع السجادة وإحصاء مجموع النقود المعدنية التي تحتها.

شكر إسحق الدنفي الكاهن الأكبر على مساعدته، وأردف قائلاً: أعدك بأنني سأفعل ما تقول. لن أعد النقود أبداً، لكن عدني فقط، بأن تتكرم وتُفصح عن المبلغ الذي دسسته تحت السجادة، عند نفاذه. قيل الكاهن تلبية رغبة إسحق الدنفي. وفي إسحق بوعده للكاهن الأكبر، نجح بعد أن بذل مجهوداً نفسياً كبيراً لئلا ينصاع لرغبته الجامعة في رؤية مقدار النقود المدسوسة تحت السجادة. حافظ على كتمان ما فعله الكاهن الأكبر سلامة، وجعله سرّاً دفيناً. كم كانت دهشة إسحق كبيرة، عندما لاحظ أنه بالرغم من مدّ يده تحت السجادة والتقاط زلطة تركية أو اثنتين (مبلغ ذو قيمة شرائية كبيرة آنذاك) يومياً، بقي المبلغ ليس قليلاً، إذ تحسّسه إسحق من على ظهر السجادة. زهل من ذلك، إلا أنه كما وعد، وفي بوعده للكاهن الأكبر سلامة.

تعجّب أفراد عائلة إسحق جداً، كيف توفّرت بيد الوالد فجأة، مبالغ من المال كافية لسدّ كل احتياجات المنزل، وبوفرة غير يسيرة، إذ لا عمل في نابلس. توقّفت أعماله بسبب الإفلاس، لا رزق، وعليه فمن أين المال؟ إنعدام الإيمان والفضول هما آفتان، تجلبان المرض والمصائب للناس. وإسحق ابن أبي حنونة الدنفي (إسحق لطفلي) كان فضولياً لمعرفة ما تحت السجادة، وعلاوة على ذلك بدأ يحسب المبلغ المالي الكبير الذي التقطه من تحت السجادة، وخشي ألا يتمكن أبداً من تسديد قرض الكاهن الأكبر. ها هو مبلغ المال قد تفاقم يوماً بعد يوم، وتوفّرت النقود المعدنية، زلطة دون انقطاع تحت السجادة [زلطة أو زلاطة، بولونية الأصل، عملة تركية مخلوطة رسمياً، نحاس بداخله فضة، قيمتها ٣٠ بارة، أنظر: محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، ط. ١، ١٩٩٠، ص. ٨٧: الكتاب متوفّر على الشابكة].

في يوم من الأيام، ذهب الكاهن الأكبر سلامة لزيارة إسحق لطفلي، تردّد إسحق كثيراً، هل يسأل الكاهن الأكبر عن المال، وفي آخر المطاف تمنطق بالشجاعة واستفسر: ”يا عمّي الكاهن سلامة، إنك أعطيتني نقوداً معدنية دسستها ذات يوم تحت سجادة صلاتي. ما زلت حتى اليوم فضولياً لمعرفة عدد الزلاطات التي وضعتها هناك. لقد وفيت بوعدي لك بالأرفع السجادة لأحصيها. ها قد مرّت أيام كثيرة، منذ ذلك الوقت، ولمّا ينفد المال، كيف يمكن ذلك أن يكون؟“

لا تُثر الحظّ، حذّر الكاهن الأكبر سلامةً إسحق لطفلي، ومع ذلك أصرّ إسحق لطفلي قائلاً: حبّ الاستطلاع ينهشني. ابتسم الكاهن الأكبر سلامة وقال: دع الحظّ يأخذ مجراه، لا تستقرّه! طالما أنك تمدّ يدك تحت السجادة وتجد كل حاجتك، فلماذا هذا الأمر يجب أن يزعجك؟ لم يُصغِ إسحق لطفلي لصوت العقل، عاد وألحّ على الكاهن الأكبر أن يُفصح عن المبلغ، الذي دسّه في ذلك اليوم تحت السجادة. حينما تيقّن الكاهن الأكبر سلامة، أنه لا مفرّ قال لإسحق: كلّ ما أعطيتك لك هو مبلغ سبع زلاطات، والآن إرفع السجادة ورّ كم تبقى لك منها؟ أمام أعين أفراد أسرته الفضوليين جداً، تقدّم إسحق لطفلي ورفع السجادة، تفاجأ الجميع، كانت تحت السجادة سبع زلاطات، السبع عملات المعدنية الأصلية، التي وضعها هناك الكاهن الأكبر سلامة.

خطأ الكاهن الأكبر سلامة، التقط بيده النقود، وكأنّه يروّزها قليلاً، ثمّ دسّها في جيب إسحق لطفلي. وقال: ها قد أخرجت من تحت السجادة، في خلال أيام كثيرة، لتلبية حاجياتك وحاجيات كل أفراد عائلتك، مع كلّ هذا ما نقصت النقود.

لا ريب أن يد الله في الأمر. والآن استفزرت الحظّ ولم تقو على التغلّب على فضولك.

النتيجة: كلّ ما بقي لك لنفقات بيتك هي سبع زلاطات!